دلائـــــــــل النبوة من خلال حديث هرقل لأبي سفيان ﷺ

د. موسى بن عقيلي بن أحمد الشيخي
أستاذ العقيدة المساعد بقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية والآداب بجامعة تبوك

ملخص البحث

تناول البحث موضوع دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، واقتصر على الدلائل الواردة في حديث هرقل لأبي سفيان ﷺ الذي رواه ابن عباس ﷺ في صحيح البخاري.

واشتمل البحث على مقدمة، وأربعة مباحث رئيسة، وهي:

١- دراسة حول الحديث الوارد.

٢- دلالة المسلك الشخصي على النبوة.

٣- دلالة المسلك النوعي على النبوة.

٤- دلالة مسلك الأتباع والمخالفين على النبوة.

وقد توصل الباحث بعد البحث إلى عدة نتائج، ومن أهمها:

١- أن هرقل يعد من علماء أهل الكتاب، والعلماء بأحوال الأنبياء.

٢- أن هرقل توصل إلى نتيجة قطعية بصحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- أن هرقل استخدم أهم المسالك الدالة على النبوة.

٤- أن هرقل لم يؤمن طمعاً في البقاء في الملك وخوفاً من أتباعه.

Research Summary

The researcher deals with the indications of prophet's prophecy (peace be upon him) confining on those indications mentioned in the Hadith of Hercules for Abo Sofian narrated by Ibn Abbas in Sahih Albukhari

The research contains of an introduction,four main subjects and a conclusion

The main subjectscare:

1_A study about Hadith

2_an indication of the personal conduct about prophecy

3_an indication about the qualitive conduct conduct about prophecy

4an indication about the conduct of the companions and protesters

The researcher ended up with various consequences suck as:

1_ Hercules is considered as a scientist of the Quran and the prophets as well

2_ Hercules concluded a definite result about the truthfulness of the prophet's prophecy

3_ Hercules used the most considerable conducts that verify the prophecy

4. Hercules didn't believe to stay in throne,nor fearing of his compa

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على من أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا، أما بعد:

فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل رسله إلى العباد بالهدى ودين الحق، ليخرجوهم من ظلمات الشرك والجهالة، إلى نور التوحيد والهداية، ويدلوهم بإذنه إلى الصراط المستقيم، الذي تكفل الله لمن تمسك به بالهداية والسعادة، وتوعد من تنكبه بالضلال والشقاء.

وقد كان مسك الختام لهؤلاء الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي ختم الله برسالته وحي السماء، وكتب لدينه الظهور على الأديان كلها.

وقد أيد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأنواع من الدلائل الدالة على صدقه، والطرق الموصلة إلى معرفته، لتكون سبيلاً للإيمان به، وحجة على من كفر وكذب به، ولكي يجد كل قوم في هذا التنوع ما يدحض حجتهم؛ فيجد المشرك من عُبَّاد الأصنام ما يدل على بطلان عبادتهم، وكذا المشرك من أهل الكتاب ما يدل على بطلان عبادة المسيح عليه السلام، وعزير، وكذا المشرك يعلم بطلان عبادة الأشجار والأحجار.

وقد كان أكثر الناس معرفة به هم أهل الكتاب؛ لمعرفتهم بجنس النبوة، ولما ورد من وصفه وخبره في كتبهم، وخاصة النصارى الأقرب عهداً بعهد النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان من أبرز من عرف النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب هرقل ملك الروم، والمعدود من علمائهم الذي بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، كما جاء خبره مفصلاً في السنة.

وقد صح عزمي لدراسة دلائل النبوة من خلال موقف هرقل من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي ورد مفصلاً من حديث أبي سفيان الذي رواه عن ابن عباس رضي الله عنه.

ويعود اختياري لهذا الموضوع للأسباب التالية:

١- أن هرقل من عظماء الروم، ومعدود من علماء أهل الكتاب.

٢- أن خبره ورد مفصلاً في أوثق المصادر عند أهل السنة والجماعة، وهو صحيح البخاري.

٣- أن خبره تضمن عدداً من أهم الدلائل على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

٤- أني لم أجد- حسب علمي- من أفرد هذه الدلائل الواردة في الحديث بدراسة سابقة.

ويهدف هذا البحث بإذن الله إلى تحقيق الأغراض التالية:

١- بيان منزلة هرقل بين قومه، ومدى معرفته بأحوال الأنبياء والرسل.

٢- معرفة المسالك التي استخدمها للاستدلال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- أن يكون في ذلك رد على من كذب بالنبي صلى الله عليه وسلم من النصارى لكونه من علمائهم.

خطة البحث: وتشتمل على مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: وتشتمل على أهمية البحث، وسبب اختياره، والغرض الذي يسعى إلى تحقيقه.

التمهيد: ويشمل ترجمة أبي سفيان ﷺ راوي الحديث، وترجمة هرقل .

المبحث الأول: دراسة الحديث، وتشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: نص الحديث ورواياته.

المطلب الثاني: سبب لقاء هرقل لأبي سفيان.

المطلب الثالث: أسئلة هرقل لأبي سفيان.

المطلب الرابع: موقف هرقل من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: دلالة المسلك الشخصي على النبوة، ويشمل ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نسب النبي صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني: صدق النبي ﷺ.

المطلب الثالث: عدم الغدر من النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثالث: دلالة المسلك النوعي على النبوة، ويشمل أربعة مطالب:

المطلب الأول: المراد بالمسلك النوعي إجمالاً.

المطلب الثاني: موافقة الشريعة للفطرة والعقل.

المطلب الثالث: حفظ الشريعة لمصالح العباد.

المطلب الرابع: صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان.

المبحث الرابع: دلالة مسلك الأتباع والمخالفين على النبوة، ويشمل:

المطلب الأول: أحوال أتباع الرسل.

المطلب الثاني: دلالة أحوالهم على صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج التي وصل إليها الباحث.

الفهارس والمراجع.

منهج البحث:

وأما المنهج المتبع في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي لتقرير وتأصيل الدلائل التي اشتمل عليها الحديث، ثم التحليلي، لتحليل مضمون الحديث، وما اشتملت عليه أسئلة هرقل، ثم المقارن، لمقارنة المسالك التي استخدمها هرقل بدلائل النبوة، وبما جاء به الرسل السابقون.

هذا وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد

ترجمة أبي سفيان ﷺ(1):

هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن مناف بن قصي بن كلاب، وكنيته أبو حنظلة، وأبو سفيان رأس قريش وقائدهم يوم أحد وفي الخندق، من دهاة العرب، وأهل الرأي والشرف فيهم. ولد في مكة قبل عام الفيل بعشر سنين، وكان في شبابه سيد بني عبد شمس، ثم نال سيادة جميع بطون قريش بعد معركة بدر، بعد مقتل عتبة بن ربيعة العبشمي وأبو الحكم عمر بن هشام المخزومي، ثم نال سيادة جميع فروع قبيلة كنانة في معركة أحد وبقي على ذلك حتى فتح مكة.

أسلم قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، وشهد غزوة حنين، ثم غزوة الطائف، وفيها فقد عينه، وأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم مائة من الإبل، وأربعين أوقية من الدراهم يتألف بها قلبه. شهد اليرموك تحت قيادة ابنه يزيد، وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته رملة، وهي أم حبيبة عندما كانت في الحبشة بعد تنصر زوجها عبد الله بن جحش، وأبو سفيان لا يزال على الشرك، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو عامله على نجران.

كان أسن من النبي صلى الله عليه وسلم بعشر سنين، وعاش بعده عشرين سنة، وكان عمر رضي الله عنه يقدره لكونه كبير بني أمية، وتولى ابنه معاوية ثم يزيد الخلافة في حياته، وتوفي في المدينة عام اثنتين وثلاثين من الهجرة، وصلى عليه عثمان رضي الله عنه، ودفن في البقيع، وله نحو تسعين سنة.

ترجمة هرقل(2):

اسم هرقل «فيلافيوس أغسطس هرقل»، ولد في عام ٥٧٥م، وتوفي عام ٦٤١م، وهو إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية، الذي تولى عرشها ٦١٠، حتى وفاته.

---

(١) انظر: كتاب الطبقات، لابن سعد :(٦٦/١)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير: (٥٦٠-٥٦١)، الإصابة في تمييز أسماء الصحابة، لابن حجر :(٣٣٢/٣-٣٣٣).

(٢) انظر: الروم في سياستهم وحضارتهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم : (٢٠١-٢٠٧)، تاريخ الدولة البيزنطية، جوزيف نسيم : (٩٧-١٠٩)، هرقل عظيم الروم، منصور عبدالحكيم: (٧٤-٧٦).

كان والد هرقل الذي يسمَّى «هرقل الأكبر» قائداً عسكرياً ناجحاً شارك في الحرب ضد الفرس ثم عين نائباً للإمبراطور على شمال إفريقيا، في مدينة قرطاج. وقضى هرقل الشطر الأول من حياته في هذه المدينة.

وينتمي هرقل إلى أسرة أرمنية الأصل، وهي الأسرة الملكية الحاكمة، وقد ألف هو ومن جاء بعده من الأباطرة ما يعرف ب «البيت الهرقلي»، الذي حكم الإمبراطورية من عام ٦١٠م إلى عام ٧١٧م.

كانت الإمبراطورية الرومانية قبل هرقل تعيش أسوأ مراحلها، بسبب الأخطار الخارجية التي تهددها، وخاصة الخطر الفارسي الذي وصل إلى سوريا، ثم اتجه شمالاً واكتسح ولايات آسيا الصغرى.

وإضافة إلى ذلك الخطر فقد عانت الإمبراطورية استبداداً مارسه الإمبراطور السابق «فوكاس» ضد شعبه، حتى كرهه الشعب وسعى للتنكيل به، واستنجد بهرقل الأكبر، ولكنه لكبر سنه اعتذر عن ذلك وأرسل ابنه لهذه المهمة.

ولمَّا تولى هرقل العرش بدأ بمواجهة الخطر الفارسي، وحاول عقد صلح مع الملك الفارسي، إلا محاولته باءت بالفشل، وأنفذ كسرى جيوشه التي استولت على حمص، ثم أنطاكية وأرض الشام، ثم استمر حتى حدث الأمر الأسوأ ليس بالمقياس السياسي فحسب، بل بالمقياس الديني، وهو حصار بيت المقدس، وإحراقه، وذبح أهله، ونهب أعظم الكنوز المحفوظة في الكنائس النصرانية في ذلك الوقت، وكان أعظمها عندهم على الاطلاق بما يسمَّى ب «الصليب المقدس» -الذي يزعم النصارى أن المسيح عليه السلام قد صلب عليه- ونقله إلى بلاد فارس.

وكان هذا الحدث كارثة دينية عظمى جللت بالعار الإمبراطورية الرومانية، وقد جاء في القرآن الكريم الإشارة إلى هذه الهزيمة النكراء في صدر سورة الروم، وكان وقوعها في زمن البعثة النبوية في حوالي عام ٦١٥م.

وبعد هذه الهزيمة استنجد هرقل بالكنيسة البيزنطية التي استجابت لطلبه، ووضعت جميع ممتلكاتها بين يديه كسلفة للإمبراطورية تغطي بها نفقات الحرب ضد الفرس، فبدأ هرقل تنظيم جيشه، واستطاع أن ينزل الهزيمة القاصمة للفرس قرب نينوى، واسترد منهم أراضي الإمبراطورية، ثم استعاد منهم الصليب المزعوم حوالي عام ٦٢٤م، وكان هذا النصر العظيم الذي تتحقق للروم تصديق لما جاء في القرآن الكريم من الإخبار بانتصار الروم على الفرس بعد هزيمتهم منهم.

وبعد هذا النصر توجه هرقل إلى بيت المقدس شكراً للرب (المسيح بزعمهم) على هذا النصر، وفي هذه الأثناء جاءه خطاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعثه مع دحية الكلبي رضي الله عنه.

وقد توفي هرقل عام ٦٤١م، عقب انتصار المسلمين العظيم في معركة اليرموك الشهيرة.

المبحث الأول: دراسة حول الحديث

المطلب الأول: نص الحديث ورواياته

ورد خبر هرقل في عدد من دواوين السنة، فقد أخرج الحديث كل من الإمام البخاري، ومسلم، وأبو داود، وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان رضي الله عنه.

وسنقتصر هنا على أصح الروايات، وهي الرواية التي أخرجها الإمام البخاري- رحمه الله- في صحيحه.

حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن عبد الله بن عباس أخبره، أن أبا سفيان بن حرب أخبره: (أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشأم، في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء(٣)، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا

(٣) اسم مدينة بيت المقدس، قيل: معناه: بيت الله، وقيل: إنما سميت باسم بانيها وهو إيلياء بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي:(٢٩٣/١).

الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم حتى أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه. ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين(٤)، و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران:٦٤]. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك نبي الأصفر. فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام)(٥).

---

(٤) الأريسيين: جمع أريسي، قيل معناه: الفلاح، وقيل: الفلاحين من أهل مملكته، وقيل: أراد أن عليك إثم الضعفاء والأتباع إذا لم يسلموا تقليداً لك. انظر: فتح الباري، لابن حجر: (٣٧/١).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الوحي، حديث رقم: (٧).

المطلب الثاني: سبب اللقاء بين هرقل وأبي سفيان

جاء في رواية البخاري بيان السبب الذي من أجله طلب هرقل لقاء أبي سفيان والوفد الذي معه، وهو السؤال عن حال النبي صلى الله عليه وسلم بعدما جاءه كتابه الذي حمله دحية الكلبي رضي الله عنه(٦) إلى عظيم بصرى، ومنه إلى هرقل.

وهناك سبب آخر ذكره ابن الناطور – كما في رواية البخاري - حمل هرقل على طلب لقاء الوفد، وهو أنه رأى ذات ليلة أن ملك الختان قد ظهر – وكان حزاءً ينظر في النجوم فسأل بطارقته عمن يختتن من هذه الأمة فأخبروه أن اليهود يختتنون، وهونوا له من شأنهم، وبينما هم على ذلك جاءهم رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به ملك غسان إلى هرقل، فلما استخبر عنه ووجد أنه يختتن وأن قومه يختتنون قال عندها: إن ملك الختان قد ظهر، ثم طلب البحث عن أحد من العرب يكون في مملكته يسأله عن حال هذا النبي ويستخبر عن أمره.

ومما سبق: يتبين أن سبب اللقاء هو الكشف عن صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بعد رؤيا هرقل بأن ملك الختان قد ظهر، ومجيء كتاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك.

وقد اهتم هرقل بأمر النبي صلى الله عليه وسلم اهتماماً عظيما فاق اهتمام جميع الملوك الآخرين الذين بعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بكتبه، ويدل على ذلك عدة أمور من أهمها:

١- عندما رأى أن ملك الختان قد ظهر جمع بطارقته وطلب منهم البحث عن الأمة التي تختتن لمعرفة ذلك النبي.

٢- لمَّا جاءه خطاب النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى أكبر علماء النصارى في ذلك الوقت، وقد جاء في بعض الروايات أنه البابا الروماني، للتحقق من رأيه في هذا الأمر بالرغم من أنه كان عالماً بأحوال الرسل، كما يدل على ذلك أسئلته الدقيقة لأبي سفيان رضي الله عنه.

٣- طلبه للوفد العربي القرشي الموجود في بلاده في ذلك الوقت بقيادة أبي سفيان للتحقق من أمر النبي صلى الله عليه وسلم من أقرب الناس إليه.

وقد كشفت هذه الخطوات الأمر لهرقل وأوصلته إلى نتيجة قطعية بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(٦) هو دحية بن خليفة الكلبي، أسلم قديماً ولم يشهد بدراً، وكان يشبَّه بجبرائيل عليه السلام، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وبقي إلى خلافة معاوية . انظر: الطبقات: (٤/٢٣٥-٢٣٦).

المطلب الثالث: أسئلة هرقل لأبي سفيان:

اشتملت أسئلة هرقل لأبي سفيان ﷺ على عشرة أسئلة، وهي كما يأتي:

١- كيف نسبه فيكم؟.
٢- هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟.
٣- هل كان من آبائه من ملك؟.
٤- فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟.
٥- أيزيدون أم ينقصون؟.
٦- فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟.
٧- فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.
٨- فهل يغدر؟.
٩- فهل قاتلتموه؟، فكيف كان قتالكم إياه؟.
١٠- ماذا يأمركم؟.

وعند النظر في هذه الأسئلة نجد أنها تتضمن نوعين من الأسئلة.

النوع الأول: أسئلة لغرض التأكد من عدم وجود دوافع شخصية لدعوى النبوة. والدافعان اللذان أراد هرقل التأكد منها هما: الأول: وجود مدعٍ للنبوة قبله بحيث يقصد الاقتداء به. والثاني: وجود ملك من آبائه بحيث يقصد استرداد ذلك الملك. وقد تحقق هرقل من خلال السؤال من انتفاء أي دافع لهذه الدعوى وعدم وجود أي غرض دنيوي للنبي صلى الله عليه وسلم من هذه الدعوى.

والنوع الثاني: أسئلة لغرض التأكد من صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم من خلال فحص الدلائل الدالة على صحة النبوة.

وقد استخدم هرقل ثلاثة مسالك رئيسة للاستدلال على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي:

١- المسلك الشخصي.
٢- المسلك النوعي.
٣- مسلك الأتباع والمخالفين.

وستكون هذه المسالك هي موضع الدراسة لهذا البحث بإذن الله تعالى.

المطلب الرابع: موقف هرقل من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم:

عند النظر في موقف هرقل من خطاب النبي صلى الله عليه وسلم نجد أنه سعى إلى تحقيق أمرين:

الأول: التحقق من صحة دعوى النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: اتخاذ الموقف المناسب المبني على النتيجة السابقة.

وإلى بيان هذين الأمرين:

أولاً: التحقق من صحة النبوة:

سبقت الإشارة إلى أن هرقل عظيم الروم الذي جمع بين زعامة الإمبراطورية الرومانية وبين العلم بالديانة النصرانية وبأحوال الأنبياء السابقين قد اهتم بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم اهتماماً عظيماً يفوق اهتمام الملوك الآخرين ، ومن ذلك طلبه للقاء الوفد العربي الموجود في مملكته بقيادة أبي سفيان، وقد سعى هرقل لكشف حقيقة أمر النبي صلى الله عليه وسلم من خلال وسيلتين:

الوسيلة الأولى: اتخاذ كافة الوسائل الضامنة لكشف الحقيقة، ومنها: سؤال هرقل عن أقرب الناس نسباً للنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لضمان الحصول على أدق المعلومات؛ لأن من كان قريباً منه في النسب فسيكون أعرف الناس بأحواله، ثم أمره بإجلاس أبي سفيان ﵁ أمامه وبقية الوفد خلفه وطلبه أن يكذبوه إن كذب، والغرض من ذلك ضمان صحة المعلومات وصدقها ليبني عليها حكمه بعد ذلك.

والوسيلة الثانية: هي توجيه الأسئلة الدقيقة لأبي سفيان، وهذه الأسئلة تنتظم تحت ثلاثة مسالك رئيسة دالَّة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي: المسلك الشخصي، والمسلك النوعي، ومسلك حال الأتباع والمخالفين. وكل ذلك يدل على معرفة هرقل بالكتب السابقة، وبأحوال الأنبياء، وعلمه على وجه الخصوص بأنه قد أظل زمان ظهور نبيٍ يكون آخر الأنبياء، حتى أصبح أهل الكتاب في حالة ترقبٍ وانتظار لذلك النبي الموعود الذي كثرت أخباره وأوصافه في كتبهم.

وقد توصل هرقل بعد هذا البحث إلى نتائج عظيمة تتلخص فيما يلي:

١- معرفة أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله حقاً بلا ريب.

٢- أن صفاته وأحواله، وحال شريعته، وأحوال أتباعه ومخالفيه مطابقة لأحوال الرسل من قبله.

٣- أن مُلْك النبي صلى الله عليه وسلم سيبلغ مملكة هرقل، وقد تحقق ذلك في عهد عمر بن الخطاب ﵁.

٤- علمه بأنه لن يخلص إليه، وأنه لو كان قادراً على ذلك لتجشم لقاءه.

٥- معرفته بمكانة النبي صلى الله عليه وسلم وعظم منزلته، وأنه وإن كان عظيم الروم إلا أنه لن يسعه إلا أن يكون بمثابة الخادم بين يديه، الذي يغسل قدميه.

ثانياً: موقفه بعد التأكد من صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم:

يتجلى موقف هرقل بعد تأكده من نبوة النبي صلى الله عليه وسلم في أمرين:

١- الرغبة في الدخول في الإسلام دون وقوع ذلك.

كانت رغبة هرقل في الدخول في الإسلام رغبة حقيقية لتيقنه بصحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه النبي المنتظر الذي جاء وصفه في كتب أهل الكتاب، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنه جمع عظماء قومه ودعاهم إلى الدخول في الإسلام، ورغبهم في ذلك أشد الترغيب، فلما رأى نفرتهم مال إلى رأيهم، وداهنهم.

والذي يظهر أن عدم إيمان هرقل كان بسبب إيثاره الدنيا على الآخرة، بحرصه على البقاء على عرشه، وخوفه على نفسه من أتباعه.

يقول ابن القيم–رحمه الله -:«فهذا ملك الروم– كان من علمائهم أيضاً–عرف وأقر أنه نبي، وأنه سيملك ما تحت قدميه، وأحب الدخول في الإسلام، فدعا قومه إليه فولوا عنه معرضين، فمنعه من الإسلام الخوف على ملكه ورئاسته»(٧).

٢- إجلال كتاب النبي صلى الله عليه وسلم:

قال ابن حجر- رحمه الله-: (ذكر السهيلي أنه بلغه أن هرقل وضع الكتاب في قصبة من ذهب تعظيماً له، وأنهم لم يزالوا يتوارثونه حتى كان عند ملك الفرنج الذي تغلب على طليطلة، ثم كان عند سبطه، فحدثني بعض أصحابنا أن عبدالملك بن سعد أحد قواد المسلمين اجتمع بذلك الملك فأخرج له الكتاب، فلمَّا رآه استعبر، وسأله أن يمكنه من تقبيله فامتنع)، ثم قال: (وأنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين ابن الصائغ الدمشقي قال: حدثني سيف الدين فليح المنصوري قال: أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك الغرب بهدية، فأرسلني ملك الغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة فقبلها، وعرض علي الإقامة عنده فامتنعت، فقال لي: لاتحفنك بتحفة سنية، فأخرج له صندوقاً مصفحاً بذهب، فأخرج منه مقلمة ذهب، فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه، وقد التصقت عليه خرقة حرير، فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر، ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لم يزل الملك فينا، فنحن نحفظه غاية الحفظ، ونعظمه، ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا)(٨).

٣- رد هرقل على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم:

روى الإمام أحمد في مسنده حديثاً يفيد أن هرقل أرسل برسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشأن خطابه الذي بعثه إليه، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن سعيد بن أبي راشد قال: (لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمص وكان جاراً لي شيخاً كبيراً، فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى النبي صلى الله

(٧) هداية الحيارى: (٢٧٨).
(٨) فتح الباري، كتاب: بدء الوحي : (٤٤).

عليه وسلم ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، فلمَّا أبلغه بخبر رسالة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وموقف هرقل قال: ثم دعا هرقل رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب فقال: (ادع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان ابعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه)، فجاء بي فدفع إلي هرقل كتاباً، فقال: (اذهب بكتابي إلى هذا الرجل فما ضيعت من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال: انظر هل يذكر صحيفته التي كتب إلي بشيء، وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل، وانظر في ظهره هل به شيء يريبك؛ فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوك، فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبيا على الماء، فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: ها هو ذا، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه، فناولته كتابي، فوضعه في حجره، ثم قال: "ممن أنت ؟ "، فقلت: أنا أحد تنوخ، قال: "هل لك في الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم؟ "، قلت: إني رسول قوم، وعلى دين قوم، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم. فضحك، وقال: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)[القصص : ٥٦]، يا أخا تنوخ! إني كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه، والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها، والله مخرقه ومخرق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأسا ما دام في العيش خير". قلت : هذه إحدى الثلاثة التي أوصاني بها صاحبي، وأخذت سهما من جعبتي، فكتبتها في جلد سيفي، ثم إنه ناول الصحيفة رجلا عن يساره. قلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم ؟ قالوا: معاوية. فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سبحان الله ! أين الليل إذا جاء النهار؟"، قال: فأخذت سهما من جعبتي، فكتبته في جلد سيفي، فلما أن فرغ من قراءة كتابي، قال: "إن لك حقا ، وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها، إنا سفر مرملون". قال: فناداه رجل من طائفة الناس، قال : أنا أجوزه، ففتح رحله، فإذا هو يأتي بحلة صفورية، فوضعها في حجري، قلت: من صاحب الجائزة ؟ قيل لي: عثمان .ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيكم ينزل هذا الرجل؟"، فقال فتى من الأنصار: أنا، فقام الأنصاري، وقمت معه، حتى إذا خرجت من طائفة المجلس، ناداني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: "تعال يا أخا تنوخ "، فأقبلت أهوي إليه، حتى كنت قائما في مجلسي الذي كنت بين يديه، فحل حبوته عن ظهره، وقال : "ها هنا امض لما أمرت له "، فجلت في ظهره، فإذا أنا بخاتم في موضع غضون الكتف مثل الحجمة الضخمة)[٩].

(٩) المسند: (٤٤٢/٣) من حديث التنوخي. وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٥/٥) : "هذا حديث غريب تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ وَإِسْنَادُهُ لَا بَأْسَ بِهِ".

ومما سبق يتبين لنا أن هرقل قد علم علماً يقينياً بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو رسول الله حقاً، وأن وصفه مطابق لما ورد في كتب أهل الكتاب، ومع ذلك لم يؤمن إيثاراً للملك.

وقد أورد ابن إسحاق أن هرقل قال لدحية حين قدم عليه بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ويحك والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته)(١٠).

ومع ذلك عظم هرقل خطاب النبي صلى الله عليه وسلم - كما سبق-وأرسل برسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، لم يعلم مضمونها على جهة التفصيل، وربما كان ذلك سبباً في بقاء ملكه مدة من الزمن.

المبحث الثاني: دلالة المسلك الشخصي على النبوة

يراد بالمسلك الشخصي أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأوصافه التي كان عليها.

ودلالة المسلك الشخصي من أهم الدلالات على النبوة؛ لأنها تتعلق بشخص النبي صلى الله عليه وسلم لا بأمر خارجي، ولأن النبوة أشرف فضيلة يمكن أن تحصل لبشر، فمن المحال أن يختص الله بها من تكون أحواله متناقضة لمقتضاها، وإنما تكون النبوة لمن اختصه الله بما يؤهله لها. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة الأنعام:١٢٤](١١).

والإنسان يستطيع أن يميز بين الصادق والكاذب من الناس ضرورة من خلال النظر في أحواله وصفاته، فكيف لا يميز من يدعي النبوة والرسالة.

يقول ابن تيمية -رحمه الله-: «ومعلوم أن مدعي الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم...وما من أحد ادَّعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشيطان عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز، وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له أدنى تمييز»(١٢).

فاجتماع الأخلاق العظيمة والكمالات العلمية والعملية في النبي صلى الله عليه وسلم تدل بالضرورة على أنه نبي مرسل.

---

(١٠) كما نقله عنه ابن جرير الطبري في تاريخه: (١٤٠/٢).
(١١) انظر: المعرفة في الإسلام، د. عبدالله القرني: (١٥٠).
(١٢) الأصفهانية، ابن تيمية: (١٥٦-١٥٧).

يقول رحمة الله الهندي – رحمه الله- في سياق بيان مسالك النبوة: «المسلك الثاني: أنه قد اجتمع فيه من الأخلاق العظيمة والأوصاف الجزيلة والكمالات العلمية والعملية والمحاسن الراجعة إلى النفس والبدن والنسب والوطن ما يجزم العقل بأنه لا يجتمع في غير نبي»(١٣).

وقد استخدم هرقل هذا المسلك للاستدلال على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك من خلال ثلاثة أسئلة ستدور عليها مطالب هذا المبحث.

المطلب الأول: نسب النبي صلى الله عليه وسلم

من المعلوم أن الله تعالى لا يختار لرسالته إلا أشرف الناس نسباً؛ ليكون ذلك أدعى لقبول رسالته، وأبعد عن الطعن فيها، ولأن صاحب النسب الشريف «له مكانة في النفوس؛ إذ لا تنكر عليه الصدارة، نبوة كانت أو ملكاً، وينكر ذلك على وضيع النسب، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه»(١٤).

ولما أراد الله تعالى تهيئة النبي صلى الله عليه وسلم لمقام النبوة جعل نسبه أشرف الأنساب وأعلاها.

وقد جاءت النصوص بتزكية نسبه صلى الله عليه وسلم، وبيان علوه، وأنه مصطفي من خير القرون من عهد آدم عليه السلام إلى القرن الذي بعث فيه.

وقد جاء عن وائلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)(١٥).

وقد أطبق العلماء على شرف نسبه صلى الله عليه وسلم، وأنه خيار من خيار من لدن أبيه آدم عليه السلامإلى عهد أبويه.

يقول القاضي عياض-رحمه الله-: «وأما شرف نسبه وكرم بلده ومنشئه فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مشكل ولا خفي منه؛ فإنه نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة، من أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده»(١٦).

ويقول ابن القيم-رحمه الله-: «وهو خير أهل الأرض نسباً على الاطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداءه كانوا يشهدون له بذلك، ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك

---

(١٣) إظهار الحق: (١٠٧٣/٤).
(١٤) موقع مداد على الشبكة بتاريخ : ١٤٢٨/١٠/٢٧هـ.
(١٥) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم :(٢٢٧٦).
(١٦) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: (١٢٥).

أبو سفيان بين يدي ملك الروم، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيله، وأشرف الأفخاذ فخذه»(١٧).

ولما كانت الرسل تبعث في أنساب قومها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نال أعلى الذروة في النسب كان أول أسئلة هرقل لأبي سفيان هو السؤال عن نسبه صلى الله عليه وسلم، حيث قال: (كيف نسبه فيكم). ولما كان نسبه معلوماً لا يجهل كان جواب أبي سفيان: (هو فينا ذو نسب)، مع أنه في موقف العداوة الذي يقتضي تحين أي فرصه للطعن فيه.

وقد اعتبر هرقل شرف نسب النبي صلى الله عليه وسلم إحدى العلامات الدالة على صدق نبوته، فقال: (وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها).

المطلب الثاني: صدق النبي صلى الله عليه وسلم

صفة الصدق من ألزم الصفات الدالة على النبوة؛ لأن الصدق من أعظم مؤهلات النبوة لكون النبي يخبر عن الله تعالى، فلابد أن يكون صادقاً، وإلا لزم الطعن في الرسالة.

ومن جهة أخرى: فإن من اتصف بالصدق طول عمره حتى عرف بذلك بين قومه ولم يؤثر عنه كذبة واحدة فإن ذلك يكون أدعى لتصديقه إذا أخبر الناس بأنه رسول من عند الله تعالى؛ إذ لا مطعن في خبره، ولأنه لا يعقل أن يترك الكذب على الناس ثم يكذب على الله تعالى.

ومن جهة ثالثة: فإن الصدق أصل الأخلاق والهادي إليها، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً...الحديث)(١٨).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أصدق الناس حتى عرف بذلك، ولقب ب «الصادق الأمين». وقد احتج على قومه بمعرفتهم بصدقه، وأنه لبث فيهم أربعين سنة قبل النبوة، لم يؤثر عليه فيها كذبة واحدة، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس:١٦].

(١٧) زاد المعاد في هدي خير العباد: (٧٠).

(١٨) أخرجه البخاري برقم: (٦٠٩٤)، ومسلم برقم: (٢٦٠٧)، وأبو داود برقم: (٤٩٨٩)، والترمذي برقم: (١٩٧١).

وكذلك احتج النبي صلى الله عليه وسلم على قريش في بداية أمره بمعرفتهم بصدقه، وأنهم لم يجربوا عليه كذباً قط.

فعن ابن عباس-رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الصفا فصعد عليها ثم نادى: (ياصباحاه) فاجتمع الناس إليه، فبين رجل يجيء، وبين رجل يبعث رسوله، فقال صلى الله عليه وسلم: (يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني عبد مناف أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أصدقتموني؟) قالوا: نعم. قال: فإني﴿ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦] ،فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا.... وقالوا: ما جربنا عليك كذبا)[١٩].

وقد استدل الصحابة بصدقه صلى الله عليه وسلم على نبوته، ومن ذلك قول جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة[٢٠] .

يقول القاضي عياض-رحمه الله-: «وأما عدله صلى الله عليه وسلم وأمانته وعفته وصدق لهجته فكان صلى الله عليه وسلم آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محادُّوه وعداه...، وقيل إن الأخنس بن شريق لقي أبا جهل يوم بدر فقال: يا أبا الحكم! ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا، تخبرني عن محمد صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب قط. وقال النذر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر. لا والله ما هو بساحر»[٢١].

وقد كانت دلالة صدق النبي صلى الله عليه وسلم على النبوة كافية لإسلام عدد من الصحابة لم يطلبوا دليلاً غيرها، من معجزة أو غير ذلك، بل اكتفوا بما عرفوا من صدقه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك:

١- إسلام خديجة رضي الله عنها:

كانت خديجة رضي الله عنها أولى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وأول من آمن به، ولما نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء ورجع إلى بيته وقال لخديجة: زملوني زملوني ... ثم قال: لقد خشيت على نفسي قالت له خديجة:

(١٩) أخرجه ابن في صحيحه برقم: (٦٥٥٠).
(٢٠) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ابن هشام: (٣٥٨/١-٣٥٩).
(٢١) الشفاء: (١٧٩).

كلا!. أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[٢٢].

والشاهد في ذلك أن خديجة رضي الله عهنا لكمال عقلها استدلت على نبوته بأحواله السابقة على النبوة، ومنها صدقه صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك كافياً في الإيمان به، بل في نصرته في دعوته.

٢- إسلام أبي بكر الصديق ﷺ:

كان أبو بكر الصديق ﷺ عالماً بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وكان يعرف صدقه وأمانته، ولذا آمن به دون تردد بمجرد أن دعاه النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت سرعة استجابته إلى الإيمان من أعظم مناقبه التي حفظها له النبي صلى الله عليه وسلم.

فأبو بكر ﷺ كان «من أعقل الناس وأخبرهم، وكان معظماً في قريش لعلمه، وإحسانه، وعقله، فلمَّا تبين له حاله، علم علماً ضرورياً أنه نبي صادق، وكان أكمل أهل الأرض يقيناً: علماً وحالاً»[٢٣]

٣- إسلام عبدالله بن سلام ﷺ:

عبدالله بن سلام حبر من أحبار اليهود، وقد جاء في خبره أنه قال: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب). وفي رواية: (فلمَّا رأيته قلت: هذا نبي الله)[٢٤].

والعلامة التي عرف بها عبدالله بن سلام ﷺ نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن بمطابقة أوصافه بما ورد في كتب أهل الكتاب، مع علمه بها لكونه من علماء أهل الكتاب، بل كانت برؤية وجهه صلى الله عليه وسلم والاكتفاء بذلك، وهذا يدل على غلبة هذه الصفة عليه، وقد عبر عنها بأبلغ تعبير، حيث أنه تيقن بأنه صادق بمجرد رؤية وجهه وقبل أن يستمع إلى كلامه، وهذا يدل على أن الصدق قد بدا على صفحات وجهه صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر على لسانه، وهذا من أعلى منازل الصدق. والله أعلم.

ولما كان صدق النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المنزلة خص هرقل أبا سفيان بالسؤال عنها على وجه الخصوص، وذلك –والله أعلم- لعلمه بأنها من أعظم الصفات الدالة على النبوة. واللافت للنظر أن هرقل لم يسأل عن صفة الصدق ذاتها؛ لأنه كان متقرراً عنده أنه صادق، وإنما سأل أبا سفيان عن موقف قومه من هذه الصفة، فقال:

(٢٢) قصة خديجة رضي الله عنها أخرجها البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف بدأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: (٣).
(٢٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية: (٥١٢/٦).
(٢٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة: (٦٥٢/٤).

(هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟). فلمَّا أقر أبا سفيان بأنهم لا يتهمونه بالكذب بنى هرقل حكمه على ذلك، وأنه نبي الله حقاً، واستدل على ذلك استدلالاً عقليا فقال: لم يكن ليذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله.

المطلب الثالث: عدم الغدر

الغدر: نقض العهد بعد إبرامه. ولا يكون إلا بعد عهد، ولذلك جاء في الحديث: (وإذا عاهد غدر).

والغدر صفة تدل على خسة النفس، وحقارة في الطبع، وهو من خصال المنافقين، كما جاء في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[٢٥].

وهو من الكبائر؛ لورود الوعيد الشديد عليه في يوم القيامة. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لكل غادر لواءً يوم القيامة يرفع له بقدر غدره)[٢٦].

ولما كان الغدر من الكبائر تنزه عنه الأنبياء؛ لإجماع المسلمين على عصمة الأنبياء من فعل الفواحش والكبائر والموبقات، وعصمتهم كذلك قبل النبوة «من كل عيب، وعصمتهم مما يوجب الريب»[٢٧].

ولمَّا كان الغدر مما يتنزه عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمة الله لهم من الوقوع فيه كان سؤال هرقل عن هذه الصفة بذاتها؛ لأن انتفاءها من علامات صدق النبي، فلمَّا وجدها كذلك اعتبرها دليلاً على صدقه صلى الله عليه وسلم، وقال مستدلاً بها على صدقه: (وكذلك الرسل لا تغدر).

قال ابن بطال: «وإنما أشار البخاري في هذا الحديث إلى سؤال هرقل لأبي سفيان، هل يغدر؟ إذ كان الغدر عند كل أمة مذموماً قبيحاً، وليس هو من صفات رسل الله، فأراد أن يتحقق بذلك صدق النبي ؛ لأن من غدر ولم يف بعهد لا يجوز أن يكون نبياً؛ لأن الأنبياء والرسل عليهم السلام أخبرت عن الله بفضل من وفَّى بعهد، وذم من غدر وختر»[٢٨].

(٢٥) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق، رقم: (٣٤).
(٢٦) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب: تحريم الغدر، رقم: (٣٣٦٩).
(٢٧) انظر: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: (٦٦٧).
(٢٨) كتاب الجزية، باب: فضل الوفاء بالعهد، رقم (٩٨٠).

المبحث الثالث: دلالة المسلك النوعي على النبوة

المطلب الأول: دلالة المسلك النوعي على النبوة إجمالاً

المراد بالمسلك النوعي هو ما تتضمنه الشريعة من الكمال، في الأخبار والأحكام.

ومن المعلوم أن الدلائل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لا تقتصر على طريقة واحدة، بل هي متعددة ومتنوعة، وتعود هذه الطرق إلى طريقين رئيسيين، وغيرهما تبع لهما في الغالب.

الطريق الأول: الاستدلال بحال الرسول. والطريق الثاني: الاستدلال بحال الرسالة.

وقد سبق الحديث عن الطريق الأول، وسيكون الحديث في هذا المبحث عن الطريق الثاني.

ولتقرير هذا الأصل يقال: لابد أن تشتمل الرسالة على ما يدل على صدق الرسول، وأنه مرسل من الله، وهذا أمر متفق عليه عند جميع الطوائف.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه لله-: «جميع الطوائف حتى أئمة الكلام والفلسفة معترفون باشتمال ما جاءت به الرسل على الأدلة الدالة على معرفة الله وتصديق رسله»(٢٩).

والشريعة هي القول الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، المتضمن للدلائل الدالة على صدقه؛ ولذا دعانا الله عز وجل إلى تدبره، واحتج به على عباده، كما قال تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المومنون:٦٨].

قال ابن القيم-رحمه الله-:«وقال في إثبات نبوة رسوله باعتبار التأمل لأحواله وتأمل دعوته وما جاء به: (أفلم يدبروا القول...) الآية. فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل حال القائل، فإن كون القول للشيء كذباً وزوراً يعلم من نفس القول تارة، وتناقضه واضطرابه، وظهور شواهد الكذب عليه، فالكذب بادٍ على صفحاته، وبادٍ على ظاهره وباطنه ....فدعاهم إلى تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ تتبين لهم حقيقة الأمر، وأن ما جاء به في أعلى مراتب الصدق»(٣٠).

المقصود: أن القول الذي يجب تدبره والتأمل فيه هو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وهو هذه الشريعة الكاملة، وأن مقتضى هذا التدبر هو الجزم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أعظم شواهد الصدق فيه ثباته في نفسه وسلامته من

(٢٩) درء تعارض العقل والنقل: (٥٣/٩).
(٣٠) الصواعق المرسلة: (٤٦٩/٢-٤٧٠).

الاضطراب والاختلاف، وتديق بعضه لبعض؛ لأنه من عند الله، ولو كان قبل البشر لوقع فيه الاختلاف والاضطراب الكثير.

وإذا نظرنا إلى مضمون الشريعة من جهة دلالتها على صدق الرسول نجد أنها دالة على ذلك من جهتين:

الأولى: كمالها في موافقتها لما جاء به الرسل من قبل. والثانية: كمالها في ذاتها.

وقد دلت النصوص على موافقة مضمون الشريعة لما جاء به الرسل من قبل، ومن الآيات الدالة على ذلك:

١ ـ قوله تعالى:﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

يقول الشنقيطي-رحمه الله- عند هذه الآية: «ومعنى الآية: قل لهم يا نبي الله ما كنت أول رسول أرسل إلى البشر، بل قد أرسل الله قبلي جميع الرسل إلى البشر، فلا وجه لاستبعادكم رسالتي، واستنكاركم إياها، لأن الله أرسل قبلي رسلاً كثيرة»[٣١].

٢ – قوله تعالى:﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٧].

ومعنى الآية الكريمة: أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هو حق في ذاته، وهو موافق لما جاء به الرسل من قبل، وهذا دليل صدقه.

يقول ابن تيمية-رحمه الله-: «النبوة في الآدميين هي من عهد آدم، فإنه كان نبياً، وكان بنوه يعلمون نبوته وأحواله بالاضطرار، وقد علم جنس ما يدعو إليه الرسل وجنس أحوالهم، فالمدعي للرسالة في زمن الإمكان إذا أتى بما ظهر به مخالفة الرسل علم أنه ليس منهم، وإذا أتى بما هو من خصائص الرسل علم أنه منهم، لاسيما إذا علم أنه لابد من رسول منتظر، وعلم أن لذلك الرسول صفات تميزه عما سواه»[٣٢].

وقد كان هذا المسلك، وهو بيان ما تتضمنه الشريعة من الكمال في ذاتها أو في موافقتها للرسالات السابقة هو أحد المسالك التي عرف بها صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة الملوك الذين كانوا في عصره، كما أنه كان سبباً في إسلام من أسلم منهم، ويتضح ذلك من خلال الشواهد التالية:

١- إسلام النجاشي ملك الحبشة:

وقد جاء في خبره أنه سأل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عن هذا الدين فذكر له ما كان عليه قومه من أمور الجاهلية، ثم قال: «... فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا

(٣١) أضواء البيان: (٣٧٧/٧).
(٣٢) الأصفهانية: (٩٣).

نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، ثم عدد له أمور الإسلام، ثم سأله النجاشي أن يقرأ عليه شيء من القرآن فقرأ عليه صدر سورة مريم، فبكى النجاشي، وبكى بطارقته، ثم قال: (إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»[٣٣] .

ودلالة هذا الخبر على النبوة من جهتين:

الأولى: ما تضمنته رسالة النبي صلى الله عليه وسلم - كما ورد على لسان جعفر - من توحيد الله تعالى، والأخلاق الحسنة من الصدق والأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار...إلى آخر هذه الأخلاق.

والجهة الثانية: ما تضمنه الرسالة لما جاء به الرسل من قبله، وآخرهم عيسى عليه السلام، وقد توصل النجاشي من المقارنة بين مضمون هذه الرسالة وما جاء به الرسل من قبله بأن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم يصل إلى حد المطابقة مع جاء به عيسى عليه السلام، وقد عبر عن ذلك بتعبير في غاية الدقة، حيث وصف الرسالتين بأنهما تخرجان من مشكاة واحدة. وهذه العبارة تشبه ما قاله ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم بأن ما جاءه هو الناموس الذي جاء به موسى عليه السلام.

وهذا النوع من الاستدلال، وخاصة: الاستدلال بموافقة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء به الرسل من قبله يتأكد في حق من أقر بجنس النبوة كأهل الكتاب، لأنهم عرفوا دعوة الرسل، وأقروا بجنس الإرسال.

ولذلك نجد أن كلاً من ورقة بن نوفل والنجاشي استدلا بهذا المسلك على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وطريقة الاستدلال به كما يأتي:

من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء، وأنه لم يأخذ شيئاً عن أهل الكتاب، فإذا أخبر بمثل ما أخبر به النبي السابق، من غير أن يأخذ منه دل على صدق الرسولين، وأن كليهما مرسل من الله.

يقول ابن تيمية-رحمه الله-: «ومن المعلوم أن موسى عليه السلام كان قبل محمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولم يأخذ عنه شيئاً، وكل من عرف حال محمد صلى الله عليه وسلم يعلم أنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئاً، فإذا أخبر هذا بمثل ما أخبر به هذا عن مرسل واحد من غير تواطؤ ولا تشاعر، فيما يمتنع في العادة التوافق فيه من غير

(٣٣) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ابن هشام: (٣٦٠/١).

تواطؤ كان هذا مما يدل على صدق كل من الرسولين في أصل الرسالة، وعلى صدق خبر كل من الرسولين فيما أخبر به من صفات ربه، إذ كان كل منهما أخبر بمثل ما أخبر به الآخر»(٣٤).

ويتلخص مما سبق: أن دلالة مضمون الشريعة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم يكون من جهة كمال الشريعة في ذاتها، وكمالها في موافقتها للرسالات السابقة.

وسنتحدث فيما يأتي عن أهم الأوجه لكمال الشريعة في ذاتها في المطالب الآتية.

المطلب الثاني: موافقة الشريعة للعقل والفطرة:

المسألة الأولى: موافقة الشريعة للفطرة:

أنزل الله تعالى هذا الدين وجعله موافقاً للفطرة التي فطر الله الناس عليها، فمعرفة الله وتوحيده الذي هو أساس الدين أمر فطري، والمراد بفطرية معرفة الله وتوحيده: «أن يكون الإنسان مخلوقاً خلقة تقتضي معرفة الله وتوحيده مع انتفاء الموانع الصارفة عن ذلك، بحيث لا يحتاج الإنسان إلى النظر والاستدلال»(٣٥).

ومن النصوص الدالة على ذلك:

١- **قوله تعالى:** ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

وهذه الآية تدل على أن الاستقامة على الدين الحنيف هي مقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

يقول ابن تيمية – رحمه الله- عند هذه الآية: «... فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفاً هو فطرة الله التي فطر الناس عليها»(٣٦).

٢- قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...) الحديث(٣٧).

والمراد بالفطرة هنا الإسلام بدليل قوله في الجملة التالية: فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ولم يذكر الإسلام، بل جعل هذه الأديان مقابل الفطرة التي هي الإسلام.

والمقصود هنا أن الله تعالى أنزل هذا الدين وجعله موافقاً لمقتضى الفطرة، وكون الدين نزل على هذه الصورة دليل على أنه من عند الله؛ لأن الذي أنزل الشرع هو

(٣٤) درء التعارض: (٧٨/٥).
(٣٥) المعرفة في الإسلام: (٢١٣).
(٣٦) الدرء: (٣٧٢/٨).
(٣٧) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز: (١٣٥٩)، ومسلم، كتاب القدر: (٢٦٥٨).

الذي خلق الخلق سبحانه وتعالى، وهذا دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، ولذلك لم يأت هذا الدين إلا والنفوس متهيأة لقبوله لموافقته للفطر السليمة والسالمة من الصوارف، فمن رفض قبوله لم يكن لذات الأمر، بل لوجود مانع آخر صرفه عن ذلك.

المسألة الثانية: موافقة الشرع للعقل:

كما أن هذا الدين نزل موافقاً للفطر السوية فكذلك نزل موافقاً للعقول السليمة، فما أمر الإسلام بأمر إلا والعقل يدل على حسنه وجماله، وما نهى عن شيء إلا دل العقل على قبحه وفحشه.

ومن الأدلة الدالة على هذا الأصل قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

يقول ابن القيم –رحمه الله-: «وهذا احتجاج منه سبحانه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر، وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال»[٣٨].

ويقول –رحمه الله- مبيناً أن مضمون هذه الشريعة دال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم من جهة موافقته للعقل السليم: «ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته»[٣٩].

وقد سلك هذا المسلك بعض من أسلم بالنبي صلى الله عليه وسلم فكان تصديقه للنبي صلى الله عليه وسلم من جهة موافقة ما جاء به للعقل السليم.

وقد روى الإمام مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن ضماداً قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون إن محمداً مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل، لعل الله يشفيه على يدي. قال: فلقيه فقال يا محمد: إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء الله، فهل لك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد)، فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، فقال: (لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت بمثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك على

(٣٨) مفتاح دار السعادة: (٦/٢).
(٣٩) المصدر نفسه: (١٠/٢).

الإسلام، فبايعه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي»[٤٠].

ودلالة العقل على صدق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم تعلم بالضرورة؛ لأن ما جاء به من الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام على درجة من الكمال مما يعلم أنه لا يصدر إلا من أعلم الناس وأصدقهم، وأن مثل ذلك يمتنع صدوره من الكاذب المفتري على الله تعالى.

وبيان ذلك، كما ذكر ابن تيمية-رحمه الله-: أن «فيما أخبروا به وما أمروا به من الأحكام والاتقان، وكشف الحقائق، وهدي الخلائق، وبيان ما يعلمه العقل جملة، ويعجز عن معرفته تفصيلاً ما يبين أنهم من العلم والمعرفة والخبرة في الغاية التي باينوا فيها أعلم الخلق عن سواهم، فيمتنع أن يصدر مثل ذلك عن جاهل ضال، وفيها من الرحمة والمصلحة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم، ومنع ما يضرهم ما يبين أن ذلك صدر عن راحمٍ بارٍ يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق، وإذا كان ذلك يدل على كمال علمهم، وكمال حسن قصدهم، فمن تم علمه وتم حسن قصده امتنع أن يكون كاذباً على الله يدعي هذه الدعوى العظيمة التي لا يكون أفجر من صاحبها إذا كان كاذباً متعمداً، ولا أجهل منه إن كان مخطئاً»[٤١].

ويعدد ابن القيم-رحمه الله- بعض مزايا الشريعة مما يقطع العقل بحسنه وجماله، وموافقته للعقل، حيث يقول: «...بل هي شريعة مؤتلفة النظام، متعادلة الأقسام، مبرأة من كل نقص، مطهرة من كل دنس، مؤسسة على العدل والحكمة، والمصلحة والرحمة، قواعدها ومبانيها إذا حرمت فساداً حرمت ما هو أولى منه أو نظيره، وإذا رعت صلاحاً رعت ما هو فوقه أو شبهه، فهي صراطه المستقيم الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملته الحنيفية السمحة التي لا ضيق فيها ولا حرج، بل هي حنيفية التوحيد، سمحة العمل، لم تأمر بشيء فيقول العقل: لو نهت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجى: لو أباحته لكان أوفق، بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرَّمت كل خبيث»[٤٢].

وهذا النص فيه جملة من المفردات التي تؤكد أن مضمون الشريعة لا يمكن أن يتنافى مع العقل، بل هو مما يحسنه العقل ويدعو إليه.

وهذا يوصل إلى العلم القطعي بأن هذه الشريعة لا يمكن أن تكون من وضع البشر، بل لا تكون إلا من تنزيل الحكيم الحميد سبحانه وتعالى.

(٤٠) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة: (٥٩٣/٢-٥٩٤).
(٤١) الأصفهانية: (١٨٠).
(٤٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين:(١٣٦/٥-١٣٧). بتصرف يسير.

يوكد هذا المعنى ما ذكره رحمة الله الهندي-رحمه الله-، حيث يقول: «من نظر إلى ما اشتملت شريعته الغراء عليه مما يتعلق بالاعتقادات والعبادات والمعاملات والسياسات والآداب والحكم علم قطعاً أنها ليست إلا من الوضع الإلهي والوحي السماوي، وأن المبعوث بها ليس إلا نبياً»(٤٣).

ويستخلص هذا المعنى أيضاً الإمام ابن سعدي-رحمه الله، فيقول: «... وقد حقق المحققون المنصفون أن كل علم نافع ديني، أو دنيوي، أو سياسي فقد دل عليه القرآن دلالة لا ريب فيها. فليس في شريعة الإسلام ما تحيله العقول، وإنما تشهد العقول الزكية بصدقه ونفعه وصلاحه»(٤٤).

وبهذا يتبين أن من أوجه كمال الشريعة الدال على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أنها موافقة لمقتضى الفطرة السوية، ومقتضى العقل السليم السالم من أي تأثير.

المطلب الثالث: حفظ الشريعة لمصالح العباد:

يسعى البشر في حياتهم وفي جميع أحوالهم إلى تحقيق مقصدين عظيمين: جلب ما فيه مصلحة لهم، ودفع الضرر عنهم.

ولما كان هذان المقصدان أعظم ما يسعى الإنسان لتحقيقه جاءت شرائع الأنبياء لتحقيقه كذلك، ثم جاءت الشريعة الخاتمة به على أكمل الوجوه وأحسن الأحوال.

وجلب المصالح ودفع المفاسد هو مهمة جميع المصلحين وأعظمهم الأنبياء والرسل عليهم السلام، حيث جاءوا لتحقيق الإصلاح في الأرض ودفع وقوع الفساد فيها.

قال الله تعالى عن شعيب عليه السلام:﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ [هود:٨٨].

وقال في دعوته لقومه: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٨٥] .

ومهمة الإصلاح التي جاء بها الأنبياء ترجع إلى تحقيق وحفظ مصالحهم ودرء المفاسد عنهم.

وقد قرر علماء الشريعة الذين استقرأوا أحكامها أن غاية الشريعة هي جلب المصالح ودفع المفاسد.

---

(٤٣) إظهار الحق: (١٠٧٤).
(٤٤) الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي: (٣١٧).

يقول العز بن عبدالسلام-رحمه الله-: «والشريعة كلها مصالح، إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: (يا أيها الذين آمنوا)، فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيراً يحثك عليه، أوشراً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحث والزجر»(٤٥).

ويقول ابن تيمية-رحمه لله-: «إن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها»(٤٦).

وقرر الشاطبي –رحمه الله- هذا الأصل أيضاً، فيقول: «إن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً»(٤٧).

ثم بين «أن المصالح المجتلبة شرعا والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الآخرة، لا من حيث أهواء النفوس»(٤٨).

وأعظم هذه المصالح ما يسمى بالضرورات الخمس، التي دل الشرع على أنها أعظم المقاصد التي جاء الشرع لحفظها، والتي قيل: إنها مراعاة في كل وسيلة، وهي: حفظ الدين، والعقل، والنفس، والعرض، والمال.

ويتحدث الإمام القرطبي –رحمه الله- عن هذا الأصل فيقول: «ثم إنه اعتبر أصول مصالح العالم فأوجبها، واعتبر أصول مفاسد العالم وحرمها، وأصول المصالح إنما هي خمسة...»(٤٩) ، ثم بين-رحمه الله- كيف صان الإسلام هذه المصالح وحافظ عليها.

وقيام الشريعة على تحقيق هذا المقصد العظيم، وهو حفظ مصالح العباد من أعظم الأدلة على أنها من عند الله، وليست من وضع البشر، ويتأكد هذا المعنى بمقارنة تلك الشريعة الربانية التي أنزلها الله تعالى بالشرائع والقوانين الوضعية التي أنتجها البشر.

ولتقرير ذلك يقال: لا يمكن أن يوجد تشريع يحقق مصالح البشر وفق ما ينفعهم في العاجل والآجل لا وفق أهوائهم إلا شريعة الإسلام؛ لأن ما يضعه البشر لأنفسهم لا يخلو من أمور:

١- أن من يضعه في الغالب هم أهل القوة من أهل الحكم والسلطة، ومن كان كذلك فإنه لن يراعي مصالح البشر، بل يراعي مصلحة نفسه، فيقوم هذا التشريع على الظلم لا على العدل الذي هو أساس التشريع في الشريعة الإسلامية.

(٤٥) قواعد الأحكام: (١/١١).
(٤٦) منهاج السنة النبوية: (١٣١/٢).
(٤٧) الموافقات: (٩/٢).
(٤٨) المصدر السابق: (٦٣/٢).
(٤٩) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام: (٢٩٦).

٢- كل تشريع يضعه البشر فهو محاط بالنقص، والعجز، والجهل الذي هو من طبع البشر. ولذلك فلا تزال تلك التشريعات تتبدل يوماً بعد يوم، كلما ظهر فيها نقص أو عيب، بخلاف ما أنزله الله تعالى الذي يعلم من خلق سبحانه وتعالى.

ولنضرب على ذلك مثالاً: فعندما صدرت مجموعة نابليون للقوانين في أوائل القرن التاسع عشر نظر إليها على أنها القانون الكامل، الذي يحوي الحلول لكل مشكلات الحياة، ونادى الفقهاء بتقديس نصوص هذه القوانين وعدم نقدها أو ادعاء عجزها، فلما دخلت هذه القوانين في المحك العملي، وبدأ القضاة في ممارسة تنفيذها ظهرت عيوبها، وبدا قصورها، ولم يمض عليه نصف قرن من الزمان حتى خفتت الأصوات المعظمة لها، ثم تبين لأصحاب الرأي والفكر أنه قانون قاصر لا يسع الحياة الإنسانية، ولذلك لاحقوه بالتغيير والتبديل(٥٠).

ومما سبق يتبين أن هذه الشريعة التي اتسمت برعاية مصالح العباد على أكمل الوجوه وأحسن الأحوال لا يمكن أن يأتي بها إلا العليم الخبير، وأن الذي جاء بها هو أصدق الخلق.

يقول ابن القيم- رحمه الله- مبينا دلالة الشريعة على صدق الرسول: «فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة ملها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، ...فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الداله عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها»(٥١).

المطلب الرابع: صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان:

لما كانت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم آخر الرسائل وشريعته خاتمة الشرائع، فقد خصها الله تعالى بصلاحيتها لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة.

وعند النظر في هذه الخاصية نجد أنها تقوم على أسس عظيمة من أعظمها ما يأتي:

١- الشريعة الخاتمة:

فلا رسالة بعد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، واذا اندرس شيء من معالم الدين بعث الله من أهل العلم من يجدد ما اندرس منها.

ولذلك: فما على المسلم إلا تعلم هذه الشريعة والتفقه فيها، ثم العمل والامتثال لما جاء فيها، كما أوصى بذلك النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(٥٠) انظر: خصائص الشريعة الإسلامية، د. عمر الأشقر: (٤٥).
(٥١) إعلام الموقعين: (٣٣٧/٤).

ولذلك لمَّا بويع عمر بن عبدالعزيز بالخلافة قام وخطب الناس قائلاً: «أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد سنتكم سنة، ولا بعد أمتكم أمة، ألا وإن الحلال ما أحل الله في كتابه على لسان نبيه حلال إلى يوم القيامة، ألا وإن الحرام ما حرم الله في كتابه على لسان نبيه حرام إلى يوم القيامة، ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع»(٥٢).

٢- الشريعة الكاملة والشاملة:

بهذه الشريعة أكمل الله الدين، وأتم النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣]

وكما أنها شريعة كاملة فهي شريعة شاملة أيضاً؛ فما ترك النبي صلى الله عليه وسلم خيراً إلا دلنا عليه، ولا شراً إلا حذرنا منه، ولا شيئاً إلا وذكر لنا فيه خبراً.

وهذا الكمال والشمول يجعل هذه الشريعة غنية بنفسها، لا تحتاج إلا زيادة أو إضافة.

٣- الشريعة الباقية إلى قيام الساعة:

وبقاء هذه الشريعة يستلزم صلاحيتها لكل زمان ومكان وحال؛ بحيث لا تخرج مسألة من المسائل عن أحكامها مهما تغيرت الأحوال أو نزلت النوازل.

وصلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان تقوم على أساسين عظيمين فيها.

الأول: وجود القواعد الشرعية الكلية التي تندرج تحتها جميع المسائل الحادثة والنوازل المستجدة، فلا توجد مسألة حادثة أو نازلة جديدة إلا وتندرج تحت قاعدة من تلك القواعد.

والثاني: وجود العلماء المجتهدين في كل عصر من العصور الذين يستنبطون الأحكام الشرعية للمسائل المستجدة.

وخير مثال على ذلك هو بقاء هذه الشريعة لأكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان غضة طرية كما أنزلت بسبب ما حباها الله بها من تلك الخصائص.

وبذلك فهي قادرة على استيعاب كل المستجدات، ومعالجة جميع المشكلات المعاصرة. وهذا الأمر يشهد به الموافق والمخالف لشريعة الإسلام.

يقول هانو (وزير خارجية فرنسا في وقته): «إن هذا الدين الإسلامي قائم الدعائم ثابت الأركان، وهو الدين الوحيد الذي أمكن اعتناق الناس له زمراً وأفواجاً ، وهو

(٥٢) الاعتصام: (٨٦/١).

الدين الإسلامي العظيم الذي تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق أي دين سواه، فلا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده فانتشر في الآفاق»(٥٣).

وهذا الدين الذي وصفه وزير الخارجية بهذه الأوصاف إنما كان كذلك لما خصه الله تعالى به من خصائص الكمال التي سبقت الإشارة إليها.

ولمَّا كان مضمون هذه الشريعة وما اشتملت عليه من الكمال دليلا على صدق من جاء بها خص هرقل أبا سفيان ﷺ بالسؤال عنها، فقال: (ماذا يأمركم؟)، ثم بنى على حكمه النهائي بصحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم من خلال كمال هذه الشريعة في ذاتها، وفي موافقتها للشرائع السابقة في أصولها.

المبحث الرابع: مسلك الاتباع والمخالفين

الاستدلال بمسلك الأتباع والمخالفين على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة النبوة تابع للمسلك السابق، وهو الاستدلال بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم. وما يقال في أتباع الرسل يقال عكسه في مخالفيهم أيضاً.

وعند النظر في أحوال أتباع الرسل، وأحوال أعدائهم نجد أن هناك أحوالاً مشتركة بين أتباع جميع الرسل، وأحوال أعدائهم كذلك.

وهذه الأحوال المشتركة هي من سنن الله تعالى الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول، وحصولها على وجه مضطرد مما يقطع بصحة نبوة متبوعهم.

وسنفصل الحديث عن هذه الأحوال ودلالتها على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في المطلبين التاليين:

المطلب الأول: أحوال أتباع الرسل: وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أتباع الرسل هم الضعفاء:

أتباع الرسل في الغالب هم الضعفاء، وقد وصفهم في القرآن الكريم بالضعفاء، والذين استضعفوا، وجاء وصفهم على لسان أعدائهم بالأراذل، وأما أعداء الرسل فجاء وصفهم بالكبراء، والملأ، والذين استكبروا، وقد جاءت النصوص الكثيرة بوصفهم بهذه الصفات، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ

(٥٣) رسالة كمال الشريعة وشمولها لكل ما يحتاجه البشر ضمن فتاوى الشيخ عبدالله بن حميد: (٣٢٨).

مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

والضعفاء هم أتباع الرسل؛ لأنه ليست لديهم موانع تصرفهم عن الإيمان، كحال أهل الرئاسة وأتباعهم، وإيمانهم لا يكون على طمع منهم على شيء من أمور الدنيا؛ لأن الأنبياء لا يعدونهم على إيمانهم بشي من أمور الدنيا.

ولا يكون ذلك بسبب خوفٍ أيضاً؛ لأن الأنبياء ليس في أيديهم قوة أو سلطة خاصة في بداية الأمر، بل القوة والسلطة تكون في يد أعدائهم، وإيمانهم إنما يكون نابعاً من معرفة الحق؛ ولذا يسارعون في الدخول فيه، يقول ابن تيمية-رحمه الله-: «... ثم اتبعه أتباع الأنبياء، وهم ضعفاء الناس، وكذبه أهل الرئاسة وعادوه، وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم. والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة أو رهبة، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم، ولا جهات يوليهم إياها، ولا كان له سيف، بل السيف والمال والجاه مع أعدائه»(٥٤).

وأما من كفر بالرسل من أهل الرئاسة وأتباعهم فسبب كفرهم في الغالب ما تحملهم عليه الرئاسة من الكبر وما تفعله المناصب في النفوس من حب الدنيا والتعلق بها والخوف من فقدانها، ولذلك نجد وصف هذه الطائفة المستكبرة عن الإيمان بالملأ.

ونجد في القرآن الكريم أن هؤلاء الملأ يعلنون في صراحة استنكافهم من الإيمان واحتقارهم لهؤلاء الضعفاء كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧].

بل إنهم يجعلون استبعادهم من مجالسهم وطردهم شرطاً لإيمانهم، كما في قوله تعالى عن الملأ من قوم نوح: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود:٢٩-٣٠].

والمقصود أن الكبر هو أعظم ما يمنع أهل الرئاسة وأتباعهم من الدخول في الإيمان.

المسألة الثانية: أتباع الرسل يزيدون ولا ينقصون:

(٥٤) الجواب الصحيح: (٥/٤٣٨-٤٣٩).

طبيعة كل دعوة جديدة أن يكون أتباعها قليل، يزدادون شيئاً فشيئا، بسبب انتشار خبرها، وقيام الأتباع الجدد بالدعوة إليها كذلك، كما فعل أبو بكر الصديق ﷺ الذي أسلم على يديه عدد من كبار الصحابة رضي الله عنهم.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الإسلام بدأ غريباً، وأنه سيعود غريباً كما بدأ.

المسألة الثالثة: تعرض الأتباع للأذى من أعدائهم:

اقتضت سنة الله تعالى أن الأنبياء وأتباعهم يتعرضون لسائر أنواع الأذى من أعدائهم، بغية إعادتهم إلى ملة الكفر مرة أخرى، وهذا هو الهدف الرئيس من هذه العداوة لدى الأعداء، كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨].

والسبب الآخر لهذه العداوة هو محاولة قطع الطريق عن الداخلين الجدد، حتى لا يقوى شأن هذه الفئة الجديدة وتصبح لهم القوة والشوكة التي تمكنهم من الانتصار على أعدائهم .

وهذا الإيذاء من الأعداء يتخذ صوراً عديدة من أهمها:

١- إيذاؤهم بالتنقص منهم، والافتراء عليهم، واتهامهم بأنواع التهم، من السحر والكذب والجنون، وغير ذلك.

٢- الإيذاء الحسي، بتعذيبهم، مثل تعذيب فرعون للسحرة بعد إيمانهم بما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام، وأعظم صور الإيذاء الحسي قتالهم على دينهم رغبة في استئصال شأفتهم .

٣- إخراجهم من ديارهم أو إلجائهم إلى الإخراج.

ولذلك أخبر ورقة بن نوفل النبي صلى الله عليه وسلم منذ بدء أمره بأن قومه سيخرجونه، وأنه ما نبي إلا وقد أخرجه قومه، وهذا أعظم دليل على أن إخراج النبي وأتباعه سنة ماضية في جميع الأنبياء وأتباعهم.

المسألة الرابعة: الأتباع لا يرتد منهم أحد سخطة لدينه:

على الرغم من الأذى الذي يتعرض له أتباع الرسل، إلا أن ذلك لا يصد أحداً منهم عن دينه؛ لما يخالط قلوبهم من الإيمان، الذي يستعذبون معه العذاب، ويتحملون في سبيل الله من أجله الأذى.

وفي تاريخ أتباع الرسل أعظم الشواهد على ذلك من مثل قصة سحرة فرعون، وقصة أصحاب الأخدود، وكذلك الأمر مع أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي عبدالله خباب بن الأرت ﷺ قال: (شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فينشق باثنين، ما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه)(٥٥).

يقول ابن تيمية-رحمه الله- عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: «وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون، لا يرتدون عن دينهم، لما خالط قلوبهم من الإيمان والمعرفة»(٥٦).

المسألة الخامسة: أتباع الرسل لهم العاقبة الحميدة:

من سنن الله تعالى أن العاقبة الحسنة والمآل الحميد للرسل وأتباعهم، وذلك بنصرهم وإظهار دينهم، وخذلان عدوهم، وقد دلته النصوص الكثيرة على ذلك، ومنها:

وشهدت النصوص كذلك بأن أعداء الرسل وأتباعهم ينتهي أمرهم إلى الخذلان والهلاك، ويكون النصر والنجاة للرسل وأتباعهم.

وقد أهلك الله تعالى قوم نوحٍ بالطوفان، وقوم هود بالريح، وقوم صالح بالصيحة، وقوم فرعون بالغرق وفي المقابل أنجى الله الرسل وأتباعهم من المؤمنين.

والنصر تارة يكون حسياً بما سبقت الإشارة إليه آنفاً، وتارة يكون معنوياً بانتصار الحجة وظهور البرهان.

المطلب الثاني: دلالة أحوال أتباع الأنبياء على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم

دلت النصوص الشرعية، وسير الأنبياء وأتباعهم مع أقوامهم المخالفين لهم أن سنة الله المضطردة هي نصرهم على أعدائهم، وإظهارهم عليهم بأنواع الظهور.

يقول ابن تيمية-رحمه الله-: «ومثل هذا في القرآن متعدد في غير موضع يذكر الله تعالى قصص رسله ومن آمن بهم وما حصل لهم من النصر والسعادة وحسن العاقبة، وقصص من كفر بهم وكذبهم، وما حصل لهم من البلاء والعذاب، وسوء العاقبة، وهذا من أعظم الأدلة والبراهين على صدق الرسل وبرهم، وكذب من خالفهم وفجوره»(٥٧).

ولبيان دلالة هذه السنة المضطردة على صدق الرسول يقال: إذا ادعى إنسان بأنه رسول من الله، ودعا الناس إلى عبادة الله، وكان صادقاً في ذلك فلابد أن الله تعالى

(٥٥) كتاب المناقب، باب: علامات النبوة، رقم: (٦٩٤٣).
(٥٦) الجواب الصحيح: (٤٣٩/٥).
(٥٧) الأصفهانية: (١٧٦).

يؤيده بأنواع من التأييد، من جنس تأييده بالآيات الدالة على صدقه كالمعجزات، ومن أعظم أنواع التأييد تأييده بالنصر على أعدائه المخالفين له والمكذبين به؛ لأن ذلك هو مقتضى حكمته وقدرته سبحانه وتعالى، فمقتضى الحكمة: نصرة الصادق وظهوره، وخذلان الكاذب وهلاكه.

والاستدلال بأحوال الرسل وأتباعهم، وما يحصل لهم من النصر والظهور، وما يحدث لأعدائهم من الهزيمة والخذلان إنما يحصل بطريق الاعتبار، وقياس الشيء إلى مثيله.

ومما يدل على ذلك ما ورد في سورة آل عمران في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [ال عمران:١٠-١٣] .

وحاصل هذا الاستدلال كما يلي: أن الله تعالى أخبر الكفار بأن مآلهم إلى الهزيمة والخذلان، وأن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم شيئاً بسبب كفرهم وتكذيبهم، ثم ضرب لهم مثلين على ذلك ليعتبروا بهم. المثل الأول كفر آل فرعون، والمثل الثاني هزيمة قريش يوم بدر، والمراد: أن مصير الكفار والمكذبين سيكون مثل مصير من كان قبلهم بسبب اشتراكهم في الكفر والتكذيب، ولذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.أي: بقياس المشركين بحال من كان قبلهم.

يقول ابن تيمية-رحمه الله-: «وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته: هو اعتبار الشي بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبار المأمور به في القرآن الكريم»(٥٨).

وبين وعد الله للرسل وأتباعهم بالنصر وبين تحقيق ذلك الوعد قد يحدث للمؤمنين نوع من الهزيمة، أو الأذى من أعدائهم، وهذا راجع إلى سنة الله تعالى في المداولة

(٥٨) النبوات: (٢/٩٦٣-٩٦٤).

بين الرسل وأتباعهم من جهة وبين مخالفيهم من جهة أخرى، وقد أشار الله إليها بقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٤٠] .

وهي التي عبر عنها أبو سفيان بقوله: (الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه).

وهذه السنة لا تتعارض مع سنة العاقبة الحميدة للمؤمنين بالنصر؛ لأنها تكون قبلها، فهي بمثابة التهيئة للنصر والتمكين، كما أنها تكون من باب الابتلاء للمؤمنين، والابتلاء يكون لحكم عظيمة، منها:

١- ليعلم الله المؤمنين الصادقين.

٢- اتخاذ الشهداء من المؤمنين.

٣- تمحيص المؤمنين من الذنوب.

٤- محق الكافرين.

٥- معرفة المجاهدين والصابرين.

وقد ذكر الله تعالى هذه الحكم في قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٠-١٤٢].

وأما حصول العلم بهذا المسلك فيكون بثلاث طرق:

١- بالبصر والمشاهدة: لمن رأى عاقبة المكذبين للرسل أو رأى آثارهم الدالة عليهم، كمن شاهد أصحاب الفيل، ومن شاهد أصحاب الحجر وقوم لوط.

٢- بالسمع: بالأخبار التي تفيد العلم، كتواتر العلم بقصة موسى وفرعون، وقصة الخليل مع النمرود، وقصة الطوفان وغير ذلك.

٣- بالسمع والبصر: كمن يشاهد بعض الآثار مع تواتر الأخبار، مثل من يشاهد السفن، ويعلم أن مبتدأها سفينة نوح(٥٩).

وإذا كانت هذه هي أحوال أتباع الرسل، فقد كانت أحوال أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك، وقد سأل عنها هرقل أسئلة دقيقة ومفصلة ومرتبة، فقال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟، ثم سأل: أيزيدون أم ينقصون؟، ثم سأل: هل يرتد منهم

---

(٥٩) الأصفهانية: (١٧٦)، بتصرف يسير.

أحد سخطة لدينه؟، فلما أجاب أبو سفيان بالإقرار، حكم هرقل بأن هذه الأحوال لأحوال أتباع الرسل، ثم رتب على ذلك حكمه بصدق النبي صلى الله عليه وسلم.

الخاتمة

بعد الانتهاء من هذا البحث توصلت إلى عدد من النتائج، ومن أهمها ما يأتي:

١- أن هرقل معدود من علماء أهل الكتاب والعالمين بأحوال الرسل.

٢- معرفة هرقل بأهم المسالك الدالة على النبوة.

٣- أن دلالة المسلك الشخصي من أعظم أنواع الدلالات على صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

٤- وصل هرقل إلى نتيجة يقينية بصحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

٥- عدم إيمان هرقل كان بسبب إيثار الدنيا والخوف من أتباعه على نفسه.

٦- أن الدلائل على النبوة كثيرة ومتعددة وليست محصورة في طريقة واحدة.

٧- قصة هرقل كانت من أسباب إسلام أبي سفيان رضي الله عنه.

٨- من أهم أوجه دلالة المسلك الشخصي على النبوة: شرف النسب والصدق وعدم الغدر.

٩- أن دلالة المسلك النوعي على النبوة يكون من جهة كمال الشريعة في ذاتها، ومطابقتها للشرائع السابقة.

١٠- دلائل النبوة متنوعة وليست محصورة في طريقة واحدة.

فهرس المراجع

١. الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، د. سعود بن عبدالعزيز العريفي، دار عالم الفوائد، ط:١٤١٩ه.

٢. إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، دراسة وتحقيق وتعليق: د. محمد أحمد ملكاوي، طبع ونشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض- السعودية، ط: ٤،١٤٢٤هـ.

٣. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، قرأه وقدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الدمام- السعودية، ط:١، ١٤٢٣ه.

٤. الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، القرطبي، تقديم وتحقيق وتعليق: د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الحرمين، الرياض-السعودية.

٥. الإمبراطورية البيزنطية، نورمان بينز، تعريب: د. حسين مؤنس، د. محمود يوسف زايد، مطبعة: لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة، ط: ١٩٥٠م.
٦. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، دار العاصمة، الرياض-السعودية، ط:١٤١٤،١هـ.
٧. خصائص الشريعة الإسلامية، د. عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن،ط:٣، ١٤٣٦هـ.
٨. درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.
٩. الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار أضواء السلف، ط:١، ١٤٣٦هـ.
١٠. رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر بن غشيان، مكتبة الرشد، الرياض-السعودية،ط:١٤٢٥هـ.
١١. الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب، أسد رستم، مؤسسة هنداوي، ط:١، ٢٠١٧م.
١٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان،ط:١٤٢٢،٢هـ.
١٣. سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ابن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر، ط:١٤٠١هـ.
١٤. شرح العقيدة الأصفهانية، ابن تيمية، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: سعيد نصر محمد، مكتبة الرشد، الرياض- السعودية، ط:١، ١٤٢٢هـ.
١٥. الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبده علي كوشك، دار البشائر الإسلامية، بيروت-لبنان، ط:٢، ١٤٣٦هـ.
١٦. كتاب النبوات، ابن تيمية، تحقيق: د. عبدالعزيز الطويان، أضواء السلف، الرياض-السعودية، ط:١٤٢٠،١هـ.
١٧. كمال الشريعة وشمولها لكل ما يحتاجه البشر، عبدالله بن حميد، ضمن فتاوى الشيخ ابن حميد.
١٨. المعرفة في الإسلام، د. عبدالله بن محمد القرني، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة-السعودية، ط:١، ١٤١٩هـ.

١٩. الموافقات، الشاطبي، تقديم: العلامة: بكر بن عبدالله أبو زيد، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن القيم، الدمام-السعودية، دار ابن عفان، القاهرة-مصر، ط:١، ١٤٢٤ه.
٢٠. النبأ العظيم- نظرات جديدة في القرآن-، د. محمد عبدالله دراز، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبدالحميد الدخاخيني، دار طيبة، الرياض- السعودية، ط:١، ١٤١٧هـ.
٢١. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، دار القلم، دمشق- سوريا، ط:١، ١٤١٦ه.
٢٢. هرقل عظيم الروم، منصور عبدالحكيم، دار الكتاب العربي: دمشق-القاهرة، ط:١، ٢٠١٦م.
٢٣. الوفاء بأحوال المصطفى، ابن الجوزي، دراسة وتحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط:١، ١٤٠٨هـ.